أثر الثقافة الأمريكية في الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية.

أ/ جبور أم الخير
جامعة وهران

إنّ ما يميز الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية هو ذلك المزيج من الروح الشرقية و الثقافة الفرنسية ، مزيج أو خليط كانت نتيجته تلك الأعمال الروائية الأصيلة بانتمائها ، الزاخرة بالمتناقضات المتباعدة التي نادرا ما تلتقي، بل حتى التفكير الجزائري ذاته يرى البعض أنه يجمع بين العقلانية الواعية والأحاسيس المفرطة. و هذه المتناقضات لا يمكن أن تتواجد في مجتمع واحد أو تكون وليدة ثقافة واحدة.

قد لا نجانب الحقيقة إذا جزمنا أن شغف الروائي بالثقافة الغربية ليس شغفا راهنا حديثا، فالمؤثرات التاريخية والمعرفية ، بحكم القانون الإبداعي الذي يرى أن الكِتَاب المؤلَّف بالفرنسية و المتأثر بالأدب الأمريكي أو المترجم منه - كمصدر للثقافة -لا يمتلك جنسية محددة و لا يعترف بالحدود بل هو يسافر طليقا تتقاسمه الأيدي والعقول وتتنازع فيه الأجيال الحاضرة و الآتية مستقبلا دون إغفال أنه مترصد من قبل أيدي الرقابة .

عُرف الكاتب الجزائري ببحثه عن الجديد ، فهو ينكب على الثقافة الغربية يستفيد منها بشتى الطرق والوسائل و يقلد نماذجها و يستلهم منها الأشكال الحديثة وتقنياتها البنائية ثم يُقدم هذا الكاتب نصوصا قد تقارب أو تباعد ذلك النموذج الأول وفق ما يتوصل إليه النقد المقارن. و من هذا المنطلق ، ارتأينا أن نبحث عن صورة الثقافة الأمريكية في متون الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية ، و هي صورة تبدو نمطية متكررة ، لا تعدو – على قلتها -أن تكون إشارات خاطفة سريعة تكشف عن طبع الفرد الجزائري الطيب إلى درجة الغباء والذي يحلم أن تحل أمريكا مشاكله بمساعداتها، وتلخص هذه الإشارات في أمور ثلاثة (الغنى المادي ،الأسلحة الحديثة و الخصوصية في المعاملة) .

إذن، هي ثقافة وجدت منفذا إلينا مع بداية الحرب العالمية الثانية، فالأمريكيون بعد نزولهم إلى شمال إفريقيا سنة 1942، فرضوا وجودهم من خلال

إصدار بعض النشريات الإعلامية ومن خلال محاولة تقربهم من عامة الناس و خاصة الأطفال منهم، فها هو "عمر" بطل "محمد ديب" في الثلاثية " النول" يفاجأ بالجندي الأمريكي المبتسم الذي يهدي له لوحا من الشكولاتة مع راية صغيرة عليها نجوم مرددا مع أصدقائه بعض الكلمات الانجليزية التي و من المؤكد لم تفهم حينذاك "هالو..هالو.." و يشاء السارد أن تنتهي الرواية بصرخة مرتفعة و متقطعة تعلو في سماء الجزائر معلنة عن وافد جديد لا يشبه الفرنسي : الأ.. مر.. يكان. (ديب ، م :1968: 550) و تذكرنا هذه الصورة بمثيلتها للجندي الأمريكي في العراق.

و بالنسبة لمولود فرعون في كتابه "عيد الميلاد" فيرى في أمريكا مستودع الثراء الفاحش و صاحبة الشعارات التحررية ، يقول:

-هم لا يحتاجون إلى الحرية أو الوعود الجميلة، بل هم في حاجة إلى الكسكسي والعباءات و خاصة الكسكسي .

-تستطيع أن تتحدث، يا أستاذ، فنحن نصدقك. فأمريكا خزان للحبوب والثياب، و شعير كندا أضخم من منتوجنا، و لكن ينبغي أن نتلقاه، فنحن ننتظر." (Feraoun M :2006 :124)

أما في رواية نجمة فإننا نجد الصورة نفسها تتكرر تقريبا، فالسيد إرنست المعمر الفرنسي يعتقد أن الحرب العالمية الثانية انعكست سلبا عليه و على جميع الفرنسيين و هو يسير نحو الإفلاس . أما أمريكا فكانت المستفيد الوحيد من حالة الحرب و استمرارها ماديا على الأقل و الأرجح [1] (كاتب ،ي 1987: 47) ، إضافة إلى صورة ثانية تشير إلى أن بعضا من الأسلحة التي استخدمت في أحداث(8 ماي 1945) كانت أمريكية المصدر "... من المتظاهرين من سقط ومنهم من راح يركض بين الأشجار...كان يمكن قطع أسلاك الهاتف (و لكن لهم أجهزة الراديو للمواصلات اللاسلكية)، و لهم أسلحة أمريكية جد حديثة)[2] .(كاتب ،ي :1987: 57) أما الصورة الثالثة فلها صلة بالاستهلاك المادي للألبسة القديمة التي تجلب من أمريكا، فالشخصية الأساسية في رواية "نجمة " لخضر يلبس لباسا أمريكيا رثا (و لكن سرواله الذي اشتراه – لاشك- من بائع أدباش قديمة، كان يمتلكه –قطعا – عملاق أمريكي...). (كاتب ،ي:1987: 73)

ومن جهة ثانية ، و على مستوى الصلات التبادلية للثقافات، تربط بعض الدراسات النقدية التي تتبعت تأثر الروائيين الجزائريين بالأدب الإنجليزي و الأمريكي، بين "محمد ديب" و "فرجينيا وولف"و لاسيما في " الأمواج" و "إلى

المنارة" إذ إن تقنية هذه الروائية تركت صداها في روايته "رقصة الملك" فشخصيات تلك الرواية تطرح قضايا عديدة حول سخافة الحياة و تتأمل مرور الزمن معبرة عن رغبتها بإيقافه . (أديب بامية، ع : 1982: 78)كما يُظهر البعض الآخر التشابه الواضح بين" آسيا جبار" و" د.ه لورنس" فهي مثله تضع أفكار شخصياتها بين علامات تنصيص و أحيانا بين قوسين وبفضل نصوصه المتحررة اكتشفت كتابة إنسانية شفافة خاصة حينما يتعلق الأمر بالجسد فمعظم الموضوعات عند هذه الكاتبة تركز على علاقة المرأة بالرجل من زوايا متعددة (المرأة الحبيبة، و الزوجة والمرأة المتمردة و الوحيدة). (بعلي، حفناوي: 2006: 184)

و الملفت للنظر أن هذه الظاهرة لم تقتصر على الأدب الانجليزي و الأمريكي فقط، بل لاحظ بعض المهتمين بالموضوع "كروبليس" أن الروائي "مولود فرعون كان من المعجبين بالأدب الروسي، شغوفا بقراءة روايات القرنيين التاسع عشر و العشرين و نجد حجتنا في مقولة للكاتب الروسي "تشيكوف" استهل بها رواية " ابن الفقير".(أديب بامية، ع :1982: 78) و حتى "محمد ديب" استوحى بشكل مباشر أو غير مباشر من كتاب إيطاليين من الجنوب تبنوا الواقعية الجديدة كـ" كارلو ليفي Carlo Levi، إقنازيو سيلونو Ignazio Silone و خاصة إليو فيتوريني Elio Vittorini "، و إذا كانت معركة هؤلاء تصدت للفاشية فإن "محمد ديب" واجه بشاعة التواجد الاستعماري و أوصل أصوات طبقة الفلاحين على منوال هؤلاء الكتاب الإيطاليين. (Bonn,C :1985 :30,31)

و قد أشارت الناقدة " عايدة أديب بامية " أن تأثر هؤلاء الكتاب بالأدبين الإنجليزي و الأمريكي فاق التأثر بالكتاب الفرنسيين و لم تجد لذلك سببا واضحا و محددا، و ربما تكون علة ذلك –حسب رأيها- إلى الاهتمام الشخصي من جانب الكاتب. إذ إن ما كان يُعثر عليه في كتابات هؤلاء يقارب إلى درجة بعيدة المعيش اليومي للشعب الجزائري في تلك المرحلة كالاضطهاد و التمييز، و كأنهم ينتمون إلى هذه الأرض البعيدة عنهم بآلاف الأميال، فعيونهم ترى المتشابه عند الفرد والمختلف في الجماعة. إذن، فهي وجدت عبقريتها في إنسانيتها و لكن مصداقية هذا الافتراض تبقى محل سجال نقدي وخاصة حينما يستبعّد الكاتب -في تصريح للكاتبة "عايدة "- أي احتكاك أو محاكاة بل و ينفيهما نفيا قاطعا كما فعل "محمد ديب الذي أنكر معرفته بكاتب يسمى "دوس باسوس" .

أما " كاتب ياسين" فعندما يُسأل عن سبب تأثره بالكاتب الأمريكي"و ليم فولكنر" يبرر ذلك التماثل الفكري و الإنساني بقوله:

" توجد بيني و بينه رابطة خفية مردها إلى أن هناك تماثلا في النماذج الإنسانية لأصلينا (جنوب الولايات المتحدة و شمال إفريقيا) و في مشاكلنا المشتركة كالعنصرية و العبودية و الدين ...إلخ و لكن هذا اللقاء يبقى على مستوى الرواية." (أديب بامية، ع : 1982: 79)

إن الحداثة الأدبية و حداثة الأفكار عمودان متلازمان على الدوام في البناء الأدبي عند "كاتب ياسين" فمن السهولة مثلا أن تدرج رواية "نجمة" ضمن الرواية الحديثة فالكاتب كما ذكر "مارك قوتار" يحدث انقلابا في التقاليد السردية و كذا في المنظومة الزمنية، ففي سنة (1958) اقترحت مجلة " فكر" العدد8/7 قائمة لأسماء كتاب مارسوا الرواية الحديثة وكان ضمن هذه القائمة "كاتب ياسين" صاحب الأسلوب الحلزوني في الكتابة (Ricadon, J : 1990 :20)، فهو يشكل نصوصا تنهل من موروث القرون السابقة و من فكرة الزمن الدائري و هو بذلك ينأى بنفسه عن الواقعية، هذه الواقعية التي لم يمارسها إطلاقا من منطلق أن تأسيس عالم الرواية لا يعتمد على توصيف الأحداث فقط بل ينبغي إعادة بعث الحياة فيها فالكتابة عنده هي كتابة الذكريات و الذاكرة و كتابة النص المحطم و المفكك، يقول عن ذلك: "كنت أسير من الألف إلى الياء، متبعا خطا مستقيما، ثم تبينت أنني لم أقل كل شيء، فكان علي أن أرجع إلى الألف و أنطلق من جديد مرة أخرى لأوضح مادة روايتي أو هكذا جاءت قصتي في شكل دائري و رقمت الفصول من 1إلى 12." (أديب بامية، ع : 1982: 271)

إن التماثل الذي لوحظ بين الكتاب الجزائريين و الأدباء الأمريكيين هو في حقيقة الأمر مواكبة لحداثة الرواية وتطبيق لها. فلقد هاجمت هذه المدرسة الأمريكية الأصل (بما أن روادها الأوائل هم "ارنست همنغواي 1898-1961 / و"جون دوس باسوس1896-1970) تقنيات الرواية التقليدية من احترام للتسلسل الزمني بحيث فجروا فكرة الزمان والفضاء واتبعوا تقنية بناء الرواية بواسطة الفلاشات المركبة، كما استكشفت هذه المدرسة بصورة مميزة جدا المحاورة الداخلية أو ما يصطلح على تسميته المنولوج. و يبدو أن الرواية الأمريكية أو الرواية الجديدة أو تيار الوعي كمدارس أدبية تجريبية تقوم مرتكزاتها على رفض القواعد الثابتة و النمطية الأدبية

، فهي تمتلك بعدا تفجيريا للأشكال الموروثة، تحاول زرع التغيير و مخالفة النسيج التقليدي – فـ" أندري جيد " في روايته مزيفو النقود يحرر نصا تتقاطع شخوصه و تعدد الرؤى فيه فهي رواية مضادة كما إستقرأ الكاتب ذلك قائلا " ليس لروايتي معنى، نعم إني أعلم ذلك، فما أقوله يبدو بلا معنى ..." (الباردي، م:2002: 41) إذن هي موجة إبداعية قدمت نصوصا تمردت عن القواعد التقليدية القديمة المعمول بها في الرواية الكلاسيكية أو الواقعية، لقارئ لم يتعودها كتغييب للموضوع، فكانت تلك النصوص صعبة على هذا المتلقي الذي تعوّد على أعمال كتابية خالية من الضبابية و التوتر، فهي لا تخاطب لدية خلفية جاهزة و ثابتة، لها مرجعية واقعية تماثلا أو تنافرا إذن فالرواية الجديدة عكست الأمور وحطمت التجربة السابقة شكلا و بناء وألغت الميثاق السردي بين السارد والقارئ الممثل في ذلك الحوار القائم دائما " إني لا أخاطب نفسي بقدر ما أخاطب الآخرين."

فمثلا إذا تحدثنا عن الاسترجاع و الاستباق بين الرواية التقليدية و الرواية الجديدة (العودة إلى الوراء و القفز إلى الأمام) و طبقنا ذلك على مختلف روايات "محمد ديب " الأولى منها و الأخيرة ، ضمن التشكيل الكلي للعمل الإبداعي، فسنكتشف غلبة الاسترجاع على الاستباق في الثلاثية (الدار الكبيرة ،الحريق و النول) بينما تزداد أهمية الاستباق في رواية مثل "هابيل " فالسارد للاحداث ينتقل بين الأمس و اليوم و الغد دون تمييز.. و تجاوزا لصعوبة قراءة هذا العمل و استيعابه يصور حالة من الضياع يحياها "هابيل" أو اسماعيل الباحث تارة عن "ليلي" و تارة أخرى عن فتاة تسمى "سابين" و هذا البطل و هو الغريب ينتظر أمرا ما ليحدث في بلد غريب، و تتشابك القصة حين اللقاء برجل مسن يتحول إلى امرأة وفي نهاية المطاف يبحث "هابيل" عن عمل في مستشفى الأمراض العقلية، حيث تعالج "ليلي" و رغم تحذير الطبيب له باحتمال أن يفقد عقله، يختار "هابيل " البقاء مع المجانين بل يصمم على التواجد بالداخل تقربا من المرأة التي يحب. والملفت للنظر فراغ بعض الصفحات التي احتفظت ببياضها إلا من جملة واحدة (ص60/ هل أنا حارس أخي/ ص112 انظر إلى الملاك، هابل/ ص149 الجريمة بداخلي). (Dib, M :1977 :60,112,149)

و استغنى هؤلاء الكتاب تماما عن الافتتاحية التي تمهد الروابط المنطقية للمضمون أو المعروض وتؤسس لمطابقة الواقع، حيث الماضي يلاصق

الحاضر في كل مشهد روائي أو حدث قصصي بل إن الماضي لا ينفصل عن الراهن، فهو متستر في ذاكرة الشخصيات تستدعيه اللحظة الحاضرة دون منطق و بمنطق في آن واحد. و لذلك لا تتشابك الأحداث و لا تفهم إلا بعد الوصول إلى نقطة النهاية و إتمام القراءة، حينذاك يعاد تأسيس البناء الروائي جملة واحدة في مخيلة القارئ، فيواصل هذا الأخير ما بدأه الروائي، من جمع للأوراق المشتتة و المتناثرة في لوحة نهائية هي النص، فالقارئ إذن ينجز ما يسمى في النقد ونظرية الأدب بإنتاجية الخطاب و نجد فعلا "جوليا كريستيفا" تذكرنا أن النص الأدبي كمنتج يتموقع من خلال صلته باللغة في منطقة التهديم و البناء وإذا عدنا إلى رواية نجمة فإننا نجد أن القارئ يتقدم في الرواية عن طريق التراجع إلى الوراء ، فالقراءة إذن تقدمية تقهقرية أوعكسية إن صح التعبير، نتعرف من البداية إلى غاية الصفحة (64)على الشخصيات الإشكالية (لخضر،رشيد ،مراد و مصطفى) كعمال عند " السيد إرنست" وفي نهاية الفصل الثاني يقدمهم السارد كشخصيات تلتقي لأول مرة فاللقاء الثاني يتحول إذن إلى اللقاء الأول. و بذلك يمكننا أن نخلص أن تأثر الكتاب الجزائريين بالرواية الأمريكية لم يكن إلا محاولة منهم إلى الحداثة و تحديا للبرهنة على القدرة و التفوق الإبداعي، هذا التمكن الفني الذي فرض وجودهم على الساحة الأدبية.

المصادر و المراجع :

1-أديب بامية، عايدة ،1982 ، تطور الأدب القصصي الجزائري، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر.

2-الباردي، محمد ،2002، الرواية العربية و الحداثة، الطبعة الثانية ، دار الحوار للنشر و التوزيع، سوريا.

-3ديب،محمد،1968 ، الثلاثية ،النول ، الطبعة الأولى ، تر: سامي الدروبي، دار الطليعة للطباعة و النشر، بيروت،

4-كاتب ياسين،1987، نجمة ، تر محمد قوبعة ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر.

5-حفناوي بعلي،2006 مقاربة في خصوصية الأدب الجزائري، الذات المعلومة و أسئلة الحداثة، المجلة الثقافية ع66، عنابة ، الجزائر.

6-Bonn,Charles, 1985, Le roman Algérien de langue française, éd L'Harmattan ,Paris.

7-Dib, Mohammed, 1977 ; Habel, éd Seuil , France.

8-Feraoun, Mouloud, 2006, L'anniversaire ,ENAG ALGER

9-Ricardon, Jean , 1990, Le nouveau roman, éd Seuil ,France